(( **الأعمال بالخواتيم**  ))

عبدالله بن محمد حفني

إمام وخطيب جامع هيا العساف بالجميزة

موقع جامع هيا العساف : <http://www.hayaalassaf.com>

القناة الرسمية على اليوتيوب : https://www.youtube.com/channel/UCq3VB0Xi1Zorm3\_Hje4JaCw

الأولى

عمرو بن ثابت صحابي جليل يلقب بالأصيرم ، دعاه النبي للإسلام فأبى ، فلمّا كان يوم أحدٍ بدا له أن يسلم وقذف الله نور الإيمان في قلبه ، فأسلم وخرج مجاهداً في غزوة أحد ، فشاهده الصحابة في الرمق الأخير في ساحة غزوة أحد ، الله أكبر ، هذا عمرو بن ثابت الأصيرم من بني عبد الأشهل متى أسلم ؟ وكيف أسلم ؟

وما الذي جاء بك يا عمرو ؟ أحدباً على قومك أم رغبة في الإسلام ؟ فقال : بل رغبة في الإسلام ، أسلمت وآمنت وقاتلت حتى أصابني ما ترون فلم يبرحوا حتى فاضت روحه إلى الله .

قال أبو هريرة > : الأصيرم عمرو بن ثابت دخل الجنة ولم يصلّ لله صلاة قط .

ولما طار خبر إسلامه إلى رسول الله قال: إنه لمن أهل الجنة .

اللهم إنا نسألك حسن الخاتمة .

وهذا سَهْلُ بْن سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ > يقول: التَقَى رَسُول اللَّهِ ، وَالمُشْرِكُونَ، فَاقْتَتَلُوا، فَلَمَّا مَالَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى عَسْكَرِهِ، وَمَالَ الآخَرُونَ إِلَى عَسْكَرِهِمْ، وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ رَجُلٌ، لاَ يَدَعُ لَهُمْ شَاذَّةً وَلاَ فَاذَّةً إِلَّا اتَّبَعَهَا يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ، فَقَالَ: مَا أَجْزَأَ مِنَّا اليَوْمَ أَحَدٌ كَمَا أَجْزَأَ فُلاَنٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: أَنَا صَاحِبُهُ، قَالَ: فَخَرَجَ مَعَهُ كُلَّمَا وَقَفَ وَقَفَ مَعَهُ، وَإِذَا أَسْرَعَ أَسْرَعَ مَعَهُ، قَالَ: فَجُرِحَ الرَّجُلُ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ المَوْتَ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالأَرْضِ، وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَى سَيْفِهِ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟» قَالَ: الرَّجُلُ الَّذِي ذَكَرْتَ آنِفًا أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَأَعْظَمَ النَّاسُ ذَلِكَ، فَقُلْتُ: أَنَا لَكُمْ بِهِ، فَخَرَجْتُ فِي طَلَبِهِ، ثُمَّ جُرِحَ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ المَوْتَ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ فِي الأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ عِنْدَ ذَلِكَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ» [وإنما الأعمالُ بخَواتيمِها] متفق عليه .

اللهم إنا نعوذ بك من سوء الخاتمة .

ساعةٌ واحدة ، تعصف بعمرٍ كامل .

لحظةٌ أخيرة في حياة العبد ينتقل بها إلى سخط من الله وغضب، ولحظة أخيرة ، وخاتمة حسنة ينتقل بها العبد من ضحضاح النار إلى بحبوحة الجنة .

أرأيتم إلى الخاتمة ماذا فعلت بالأصيرم عمرو بن ثابت وماذا فعلت الخاتمة في قتيل نفسه ؟

الخاتمة لحظة أخيرة ينتقل العبد فيها من حالةٍ إلى حالة ومن منزلةٍ إلى منزلة .

غلام يهودي، كان يخدم النبي فمرض فلما سمع النبي بحاله انطلق إليه يعوده، فلما دخل عليه وجده يعاني الموت في آخر لحظات حياته، وأبوه جالس عند رأسه لا يحرك ساكنا.

فلما رآه عليه الصلاة والسلام بهذه الحالة طمع في إسلامه وإنقاذه من عذاب النار.

فقال له: "يا غلام قل لا إله إلا الله" .

فنظر الغلام إلى أبيه فقال له أبوه: " أَطِعْ أَبَا القَاسِمِ".

فنطق الغلام بأعظم كلمة وقال : "لا إله إلا الله" ثم فاضت روحه فخرج النبي من عنده فرحا وهو يقول: " الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ". رواه البخاري .

إنها الخاتمة ، إنها اللحظة الحاسمة في حياتنا.

لَا يَغُرَّنَّكَ صَفَا الْأَوْقَاتِ

فَإِنَّ تَحْتَهَا غَوَامِضَ الْآفَاتِ

لحظة الختام الأخير والنفس الأخير، لحظة تزل فيها أقدام وتضل قلوب وتذهل عقول وتغلو ألسنة .

إنّها الخاتمة واللحظة الأخيرة لكل منّا في هذه الحياة ، لحظة تصبح الدنيا بعدها ذكريات، لحظة تقتل فيها الشهوات ويندم فيها العبد على ما فرط وفات، الخاتمة لحظة ينتقل العبد بها إلى رحمة الله أو إلى سخط الله .

الخاتمة فزغ من خوفها المتقون والصالحون لحظة يبشر فيها العبد بروح وريحان أو غضب ونيران.

لحظة الختام روح تَخْرُجُ فتَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ ونفس تفرق في الجسد فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَتَتَقَطَّعُ مَعَهَا الْعُرُوقُ وَالْعَصَبُ .

سئل الفضيل بن عياض ما بال الميت تنزع نفسه وهو ساكت وابن آدم يضطرب من القرصة ؟ قال: إن الملائكة توثقه في تلك اللحظة فيبقى في محله لا يتحرك ، وقد بلغت الروح الحلقوم وأنكشف الغطاء وظهر عالم الغيب وأغلق باب التوبة ﭽ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ الأنعام: ٦١ .

لحظة الخاتمة أقظّت مضاجعَ الصالحين، فلم يركنوا لطاعتهم ولم يغتروا بصلاتهم وبكائهم وعبادتهم فها هو الإمام المحدث الزاهد أبو سفيان الثوري يبكي كثيرا ويقول: " أَخَافُ أَنْ أُسْلَبَ الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ أَمُوتَ".

حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (7/12).

وكان حبيب العجمي يبكي ويقول: "من لي بأن يختم لي بلا إله إلا الله". طهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب، ص93.

وهذا ابن أبي حمزة يقول : "الخاتمة هي التي قطعت أعناق الرجال".

وأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، يقول: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «لَا تَعْجَبُوا بِعَمَلِ أَحَدٍ حَتَّى تَنْظُرُوا بِمَا يُخْتَمُ لَهُ، فَإِنَّ الْعَامِلَ يَعْمَلُ زَمَانًا مِنْ دَهْرِهِ أَوْ بُرْهَةً مِنْ دَهْرِهِ بِعَمَلٍ صَالِحٍ لَوْ مَاتَ دَخَلَ الْجَنَّةَ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَعْمَلُ عَمَلًا سَيِّئًا؛ وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ زَمَانًا مِنْ دَهْرِهِ بِعَمَلٍ لَوْ مَاتَ دَخَلَ النَّارَ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَعْمَلُ عَمَلًا صَالِحًا؛ فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ فَوَفَّقَهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ». رواه أحمد وصححه الألباني في الصحيحة (1334).

ورأى الحسن ~ رجلا يجود بنفسه في حالة الموت فقال: " إن آمرأ هذا آخره لجدير أن يزهد في أوله، وإن آمرأ هذا أوله لجدير أن يخاف آخره" البيان والتبيين (3/87)

قال ابن الجوزي ~ في رسالة الثبات عند الممات: "وقد يستولي إبليس عَلَى الإِنْسَانِ حِينَئِذٍ فَيُضِلُّهُ فِي اعْتِقَادِهِ وَرُبَّمَا حَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ وَرُبَّمَا مَنَعَهُ مِنَ الْخُرُوجِ مِنْ مَظْلَمَةٍ أَوْ آيَسَهُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ " .

من هنا كان النبي يدعو ربه قائلا : (( اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أن يَتَخَبَّطَنِي الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ )) رواه أبو داود وصححه الألباني .

ورحم الله ابن القيم يوم قال : مِنْ أَعْظَمِ الْفِقْهِ: أَنْ يَخَافَ الرَّجُلُ أَنْ تَخْذُلَهُ ذُنُوبُهُ عِنْدَ الْمَوْتِ، فَتَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَاتِمَةِ الْحُسْنَى . الداء والدواء (ص: 167) .

يقول عبد العزيز بن أبي رواد : دخلت على المغيرة بن حكيم في مرضه الذي مات فيه فقلت : أوصني ، قال : اعمل لهذا المضطجع .

**أقول قولي هذا واستغفروا الله العظيم ..**

الثانية

يا كرام الحديث عن الخاتمة ، حديث تشرئب إليه الأعناق المؤمنة ، وتخاف منه القلوب الحية فالأعمال بالخواتيم.

رددها الأعمال بالخواتيم، فإياك ثم إياك أن تثق بعملك وتحسن الظن بنفسك إياك ثم إياك أن تحتقر عاصياً، أو تسخر بمذنباً، أو تائباً فالخاتمة هي الفيصل فكم من وجوه خاشعة عابدة وخاتمتها تصلى نارا حامية؟ كم من شخص شارف مركبه ساحل النجاة، وفجأة غرق في أمواج الهوى ؟

كلنا والله تحت هذا الخطر الكبير.

فكلنا لا يدري بماذا يُختم له، بالله عليك أليس هذا يدعونا إلى الخوف والقلق من الخاتمة وعاقبتها؟

وَبَكَى بَعْضُ الصَّحَابَةِ عِنْدَ مَوْتِهِ، فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ @ يَقُولُ: " ((إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَبَضَ خَلْقَهُ قَبْضَتَيْنِ، فَقَالَ: هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ، وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ)) " وَلَا أَدْرِي فِي أَيِّ الْقَبْضَتَيْنِ كُنْتُ؟

وَمِنْ هُنَا كَانَ الصَّحَابَةُ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ يَخَافُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمُ النِّفَاقَ وَيَشْتَدُّ قَلَقُهُمْ وَجَزَعُهُمْ مِنْهُ.

قَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: " أَدْرَكْتُ ثَلاَثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ @، كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ.

وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ > يَقُولُ لِحُذَيْفَةَ: أَنْشُدُكَ اللَّهَ هَلْ سَمَّانِي لَكَ رَسُولُ اللَّهِ @ يَعْنِي فِي الْمُنَافِقِينَ فَيَقُولُ: لَا، وَلَا أُزَكِّي بَعْدَكَ أَحَدًا.

لما نزل الْمَوْت بِسُلَيْمَان التَّيْمِيّ قيل لَهُ: أبشر فقد كنت مُجْتَهدا فِي طَاعَة الله تَعَالَى فَقَالَ: لَا تَقولُوا هَكَذَا فَإِنِّي لَا أَدْرِي مَا يَبْدُو لي من الله عز وَجل فَإِنَّهُ يَقُول سُبْحَانَهُ {وبدا لَهُم من الله مَا لم يَكُونُوا يحتسبون} قَالَ بَعضهم: عمِلُوا أعمالا كَانُوا يظنون أَنَّهَا حَسَنَات فوجدوها سيئات. العاقبة في ذكر الموت (ص: 133 )

قال الفضيل بن عياض: في قول الله عَزَّ وَجَلَّ: {وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ} قال: أتوا بأعمال ظنوها حسنات، فإذا هي سيئات. فسمع هذا يحيي بن معين فبكى واشتد بكاؤه. تاريخ بغداد (15/ 352 )

فماذا نقول نحن؟! وقد عصفت بنا رياح الأهواء والشهوات ، والشبهات ، والقنوات ، والفتن ، والمغريات ، فأصبحت الجوارح والألسنة رطبةً بالحديث عن الدنيا وزينتها ولعبها وتكاثرها وتفاخرها، فانصرفت القلوب عن طاعة ربها وتاهت في ظلمات بعضها فوق بعض.

يقول أبو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ >: إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الْحَسَنَةَ فَيَثِقُ بِهَا وَيَنْسَى الْمُحَقَّرَاتِ فَيَلْقَى اللَّهَ وَقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ السَّيِّئَةَ فَلَا يَزَالُ مِنْهَا مُشْفِقًا حَتَّى يلقى الله آمنا. فتح الباري لابن حجر (11/ 330)

لما احتضر أبو سفيان بن الحارث بكى أهله، قال: "لا تبكوا علي فإني لم أقع في خطيئة منذ أسلمت"

والعماد المقدسي قال عنه ابن قدامة: "منذ عرفته ما عرفت أن عصى الله معصية، فلما جاءه الموت جعل يقول: يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث وأستقبل القبلة وتشهد".

وختاماً من عاش على شيءٍ مات عليه، ومن أحبّ شيئاً أكثر من ذكره، والأعمال بالخواتيم.